الاستنباط التربوي من تفسير الجامع للإمام القرطبي

هشام معتز
طالب باحث في سلك الدكتوراه
تحت إشراف الدكتور: محمد اصبيحي
جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – المحمدية
المغرب

مقدمة:

تحظى التربية الإسلامية بأهمية بالغة في ديننا الحنيف، وذلك نظرا لتأصيلها من نصوص الوحي، حيث يعتبر القرآن الكريم والسنة النبوية مصدران أساسيان يتضمنان معالم التربية الإيمانية والأخلاقية التي ارتضاها الله عز وجل للإنسان المسلم.

ولقد هيأ الله تعالى لكتابه العزيز مفسرين جهابذة بذلوا جهودا محمودة في سبيل بيان المراد من كلامه الكريم، واستخراج المعاني الكامنة في متنه الشريف، وبذلك برز تفسير القرآن الكريم من أجل مقصد الهداية إلى الحياة القويمة، قال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ الإسراءالآية10.

وعند مطالعة تاريخ علم التفسير تبرز حقبة غالية في مدرسة الغرب الإسلامي، وهي حقبة القرن السابع الهجري، نجد أن الإمام القرطبي (ت 671هـ) قد أسدى خدمات جليلة لجانب التفسير التربوي، وذلك بإسهامه بمضامين مؤصلة لجانب التفسير التربوي، باستنباطاته التربوية القيمة، والتي ينبغي الاعتناء بها من أجل قيمتها العظيمة.

وبالتالي موضوع هذه المقالة يتعلق بجانب الاستنباطات التربوية، فيما يخص الأخلاق والآداب المطلوبة من أجل تزكية النفس وتحليتها لإرضاء الخالق عز وجل.

من هنا تبرز أهمية موضوع الاستنباط التربوي من كتاب تفسير الجامع للإمام القرطبي، الذي اكتنز الدرر التربوية المفيدة، والقيم الأخلاقية السديدة، والتي نحتاجها في عالمنا المعاصر.

كما أن بيان الاستنباطات التربوية تدل عن جهود علم من أعلام المفسرين في مدرسة الغرب الإسلامي، ومناسبة حقيقية لمعرفة ثراء مصنفاتنا التفسيرية بمنظومة مؤصلة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتدل على تواجد أنواع متعددة من التربيات القيمة الكافية لإفادة الأفراد ونماء المجتمعات وتحصين الأمة.

فمدخل الاستنباط التربوي من مؤلف التفسير يعد مفتاح بوابة استخراج منظومة تربوية إسلامية موسوعية تعيننا في وقتنا الحالي اتجاه التحديات الراهنة.

هذا المقال المسمى: الاستنباط التربوي عند القرطبي مستل ومرتبط بالبحث المختار لإنجازه في سلك الدكتوراه والذي عنونته: الاستنباطات العقدية والتربوية من تفاسير الغرب الإسلامي: تفسير الإمام القرطبي أنموذجا، يعنى بحقبة القرن السابع الهجري، بالبقعة الجغرافية الغالية الغرب الإسلامي التي تضم الأندلس وبلاد المغرب.

ومن دواعي اختيار مثل هذا الموضوع هو الرغبة في بيان قيمة ما استخرجه الإمام القرطبي من نفائس معرفية عظيمة من جهة، والكشف عن منهجه في استنباطها من جهة أخرى، أي ثنائية المضمون والمنهج ثم سؤال الوظيفة الذي يكمن في كيفية الاستفادة منها.

وبالتالي الإشكالية الجوهرية التي تبدو: ماهي الاستنباطات التربوية من كتاب الجامع للإمام القرطبي وكيف يمكن الاستفادة منها؟

للإجابة عن هذه الإشكالية المحورية، يمكن الإشارة إلى إشكاليات جزئية متناسلة تنتظم في العناصر التالية:

-ما الاستنباط؟

-ما التربية؟

-ما المقصود بالاستنباط التربوي؟ وما أهميته؟

-نماذج من الاستنباطات التربوية

كيف يمكن الاستفادة منها؟

للإجابة عن هذه النقط يمكن اقتفاء الخطة ذات التصميم التالي:

المبحث الأول: الشق النظري متعلق بتحديد المفاهيم

1- مفهوم الاستنباط

2- مفهوم التربية

3-الاستنباط التربوي: مفهومه، أهميته

المبحث الثاني: الشق التطبيقي متعلق بنماذج مقترحة للاستفادة منها

4-نماذج من الاستنباطات التربوية

5-سبل الاستفادة من الاستنباطات التربوية

تجدر الإشارة إلى أن منهجي الذي سلكته في تدبيج هذا المقال هو المزاوجة بين المنهج الوصفي والمنهج التحليلي.

لقد أثنى الله سبحانه على أهل الاستنباط في محكم تنزيله فقال تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾ الآية 83 من سورة النساء، وذلك للأهمية البالغة للاستنباط،

كما ورد في مقدمة تفسير الجامع قول الإمام القرطبي: "ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبه على معانيه، وأشار إلى أصوله، ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم. قال الله

تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ سورة المجادلة الآية 11، فصار الكتاب أصلا، والسنة له بيانا، واستنباط العلماء إيضاحا وتبيانا."

ولكن ما الاستنباط؟

1-مفهوم الاستنباط:

لغة: هو الاستخراج والظهور بعد الخفاء، وأصله من النبط، والنبط: الماء الذي ينبط من قعر البئر إذا حفرت، وقد نبط ماؤها، ينبط نبطا ونبوطا، وأنبطنا الماء، أي استنبطناه، يعني انتهينا إليه.[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ سورة النساء الآية83، قال ابن كثير: أي: يستخرجونه.[2]

إذن كلمة الاستنباط تدور على الاستخراج، والإظهار بعد الخفاء.

أما في **الاصطلاح**: عرفه الجرجاني بالمعنى العام بأنه استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن، وقوة القريحة.[3]

تضمن كتاب الجامع تعريف الاستنباط وذلك عند تفسير قول الله تعالى: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾

أي يستخرجونه أي لعلموا ما ينبغي أن يفشى وما ينبغي أن يكتم.

عرفه د. نايف بن سعيد الزهراني: استخراج المعاني المترتبة على المعنى المراد من الآية.[4]

إذا كانت هذه ماهية الاستنباط، فما المقصود بالتربية؟

2- مفهوم التربية:

لغة:

مشتقة من ربا، قال ابن فارس: الراء والباء والحرف المعتل وكذلك المهموز منه يدل على أصل واحد، وهو الزيادة والنماء والعلو. تقول من ربا الشيء يربو، إذا زاد. وربا الرابية إذا علاها. والربوة: المكان المرتفع. ويقال أربت الحنطة: زكت، وهي تربي.[5]

أصل معنى التربية في اللغة له ثلاثة معان: 1-ربا يربو بمعنى: زاد ونما. 2-ربي يربى على وزن خفي يخفى، ومعناها: نشأ وترعرع.3-رب يرب على وزن مد يمد، بمعنى: أصلح وتولى الأمر.[6]

وفي الاصطلاح:

التربية تعني عملية بناء الطفل شيئا فشيئا إلى حد التمام.[7]

تؤول التربية الى معنى الرعاية والتنمية اذ التربية وسيلة إصلاحية بناءة.[8]

بعد بيان المفهومين الاستنباط والتربية، فما المقصود من الاستنباط التربوي؟

3-**الاستنباط التربوي:**

أ-**مفهومه:**

إن بيان مفهوم الاستنباط التربوي من شأنه بيان العلاقة التي تربط بين المفهومين معا، فالاستنباط في آخر المطاف هو استخراج للمعاني الخفية، والتربية تفيد النماء، وبالتالي فاستخراج المعاني التربوية هو من أجل الزيادة والتحلية بما هو صالح ومفيد للإنسان المسلم.

الاستنباط التربوي يعنى باستخراج المعاني الخفية التربوية الصحيحة من النصوص الشرعية، سواء كانت من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة.

عرفته د. سعاد الزهراني: هو مجهود عقلي يقوم به الباحث من خلاله باستخراج ما خفي من نصوص القرآن الكريم والسنة من معاني تربوية بطرق علمية صحيحة.

ماهي أهميته؟

ب –أهميته:

توظيف الاستنباط التربوي من شأنه التمكين من عدة مضامين تتعلق بجوانب مختلفة في مجال التربية، كمكارم الأخلاق وجانب الآداب والقيم، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وأيضا فتح آفاق التربية الإسلامية لإصلاح الأفراد والمجتمعات وذلك انطلاقا من إعمال التزكية والتطهير، من أجل إخلاء المحل من أجل التحلية بالفضائل الحميدة.

وهل توجد نماذج لاستنباطات تربوية في ثنايا كتاب الجامع؟

ج-نماذج من الاستنباطات التربوية:

بعد استقراء كتاب الجامع والبحث عن مسألة الاستنباطات التربوية في كتاب الإمام القرطبي التفسيري الجامع، يستشف وجود عدة استنباطات تربوية، ويمكن إيراد نماذج منها عبر تقسيمات كالآتي:

-التربية الإيمانية:

قال الله تعالى:﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ الآية94سورة النساء

العاشرة- استدل بهذه الآية من قال: إن الإيمان هو القول، لقوله تعالى: و: ﴿لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾. قالوا: ولما منع أن يقال لمن قال لا إله إلا الله لست مؤمنا منع من قتلهم بمجرد القول. ولولا الإيمان الذي هو هذا القول لم يعب قولهم. **قلنا:** إنما شك القوم في حالة أن يكون هذا القول منه تعوذا فقتلوه، والله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) وليس في ذلك أن الإيمان هو الإقرار فقط، ألا ترى أن المنافقين كانوا يقولون هذا القول وليسوا بمؤمنين حسب ما تقدم بيانه في (البقرة) وقد كشف البيان في هذا قوله عليه السلام: (أفلا شققت عن قلبه)؟ فثبت أن الإيمان هو الإقرار وغيره، وأن حقيقته التصديق بالقلب، ولكن ليس للعبد طريق إليه إلا ما سمع منه فقط.[9]

وجه الاستنباط:

رد الإمام على من قال إن الإيمان قول باللسان فقط، بل خلص إلى أن الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب أيضا.

استنبط الإمام المفسر أن القول باللسان غير كاف، بل يستلزم التصديق القلبي.

منهج الإمام في الاستنباط العقدي:

استند الإمام للقرآن الكريم، وقد أشار إلى ما جاء في سورة البقرة، أن المنافقين كانوا يقولون بلسانهم أنهم مؤمنون، وفي حقيقة الأمر أنهم غير مؤمنين.

كما اعتمد رحمه الله على السنة النبوية الشريفة حين أورد حديث أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله..، وأيضا حديث: ألا شققت على قلبه.

–التربية الأخلاقية:

وهي التربية المتعلقة بالأخلاق الحسنة ولها نصيب معتبر في كتاب الجامع لأحكام القرآن، ويمكن الإشارة لجملة منها:

–جانب الأخلاق:

المثال الأول: العفو والصفح:

﴿فاعفوا واصفحوا﴾ الآية109 من سورة البقرة

من أجل إظهار تفسير الآية 109من سورة البقرة، بين المفسر المراد من "فاعفوا واصفحوا"، ومن تخص حيث قال الإمام القرطبي:

"وهو الصحيح، روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدكية، وأسامة وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث ابن الخزرج قبل وقعة بدر، فسارا حتى مرا بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول – وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي– فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر ابن أبي أنفه بردائه وقال: لا تغيروا علينا! فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن، فقال له عبد الله بن أبي ابن سلول: أيها المرء، لا أحسن مما تقول إن كان حقا! فلا تؤذنا به في مجالسنا، [ارجع إلى رحلك [فمن جاءك فاقصص عليه. قال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا في مجالسنا، فإنا نحب ذلك. فاستتب المشركون والمسلمون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ([يا سعد] ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب– يريد عبد الله بن أبي– قال كذا وكذا) فقال: أي رسول الله، بأبي أنت وأمي! اعف عنه واصفح، فو الذي أنزل عليك الكتاب بالحق لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك، فذلك فعل ما رأيت، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله تعالى، ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل:" ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، وقال:" ود كثير من أهل الكتاب". فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو عنهم ما أمره الله به حتى أذن له فيهم، فلما غزا رسول الله صلى الله

عليه وسلم بدرا فقتل الله به من قتل من صناديد الكفار وسادات قريش، فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه غانمين منصورين، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادات قريش، قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، فأسلموا[10]. قوله تعالى:" حتى يأتي الله بأمره" يعني قتل قريظة وجلاء بني النضير." إن الله على كل شيء قدير".[11]

وجه الاستنباط:

استنبط الإمام القرطبي خلق العفو والصفح الذي كان يتعامل به رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين وأهل الكتاب.

منهج الإمام:

لتأصيل استنباطه، استند الإمام إلى القرآن الكريم والسنة النبوية.

المثال الثاني: صدق الوعد:

﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ الآية 2سورة الصف

قلت: أي لا يقضي عليه بذلك، فأما في مكارم الأخلاق وحسن المروءة فنعم. وقد أثنى الله تعالى على من صدق وعده ووفى بنذره فقال: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ [البقرة:177]، وقال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد﴾ [مريم: 54] وقد تقدم بيانه.[12]

وجه الاستنباط:

استنبط الإمام المفسر أهمية صدق الوعد، وأنه يعد من مكارم الأخلاق وسمو الخصال.

منهج الإمام:

يثني الإمام المفسر على مكارم الأخلاق، ومن ضمنها صدق الوعد والوفاء بالنذر، انطلاقا من القرآن الكريم والسنة النبوية، فهو تفسير مأثور.

تبقى هذه مجرد نماذج لاستنباطات تربوية فيما يخص الأخلاق، وإلا فإنني وقفت على نماذج أخرى كثيرة، الشيء الذي يجعلني أقول إن كتاب الجامع اكتنز منظومة واسعة ومتكاملة من مكارم الأخلاق، ويبدو لي أن ذلك نابع من تكامل النسيج التربوي الأخلاقي الذي في كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم.

إلى جانب التربية الأخلاقية تتواجد تربية عملية إجرائية، تركز على العمل بالآداب، يمكن ذكر بعض النماذج منها:

–جانب الآداب:

المثال الأول: المصافحة:

﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا...﴾ الآية 100 سورة يوسف

ساق الإمام الكلام في المصافحة، حيث ذكر الندب إلى المصافحة والأمر بها، كما أشار إلى أن مالكا جعل حكمها الجواز، ورد على من قال إن الإمام مالك كره المصافحة.

ولا بأس بالمصافحة، فقد صافح النبي صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة، وأمر بها، وندب إليها، وقال:" تصافحوا يذهب الغل" وروى غالب التمار عن الشعبي أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا إذا التقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا، فإن قيل: فقد كره مالك المصافحة؟ قلنا: روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة، وذهب إلى هذا سحنون وغيره من أصحابنا، وقد روي عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة، وهو الذي يدل عليه معنى ما في الموطأ، وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف. قال ابن العربي: إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمرا عاما في الدين، ولا منقولا نقل السلام، ولو كانت منه لاستوى معه.

قلت: قد جاء في المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها، والدأب عليها والمحافظة[13]، وهو ما رواه البراء بن عازب قال: لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقلت: يا رسول الله! إن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم؟

فقال:" نحن أحق بالمصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبها بينهما.[14]

وجه الاستنباط:

إذن استنبط الإمام جواز المصافحة، وأورد ا حديثا يدل على الترغيب فيها والدأب عليها وأشار إلى عظيم أجرها وهو مغفرة الذنوب.

منهج الإمام:

الاستناد إلى الحديث النبوي، وإجماع العلماء.

جانب القيم وتصحيح المفاهيم:

تصحيح مفهوم ترك الطيبات لدى الصوفية:

﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ الآية 32 سورة الأعراف

تصحيح مفهوم ترك الطيبات وذلك بعد إيراد تباين التفاسير حول المسألة، وقد اختلف في ترك الطيبات والإعراض عن اللذات، فقال قوم: ليس ذلك من القربات، والفعل والترك يستوي في المباحات. وقال آخرون: ليس قربة في ذاته، وإنما هو سبيل إلى الزهد في الدنيا، وقصر الأمل فيها، وترك التكلف لأجلها، وذلك مندوب إليه، والمندوب قربة.. قال أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي شيخ أشياخنا: وهو الصحيح إن شاء الله عز وجل، فإنه لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه امتنع من طعام لأجل طيبه قط، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبطيخ والرطب، وإنما يكره التكلف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة. والله تعالى أعلم.[15]

قال الإمام القرطبي:" وقد كره بعض الصوفية أكل الطيبات، واحتج بقول عمر رضي الله عنه: إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر. والجواب أن هذا من عمر قول خرج على من خشي منه إيثار التنعم في الدنيا، والمداومة على الشهوات، وشفاء النفس من اللذات، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا، ولذلك كان يكتب عمر إلى عمال: إياكم والتنعم وزي أهل العجم، واخشوشنوا. ولم يرد رضي الله عنه تحريم شي أحله الله، ولا تحظير ما أباحه الله تبارك اسمه. وقول الله عز وجل أولى ما امتثل واعتمد عليه. قال الله تعالى:" قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق". وقال عليه السلام: (سيد إدام الدنيا والآخرة

اللحم). وقد روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الطبيخ بالرطب ويقول: (يكسر حر هذا برد هذا وبرد هذا حر هذا). والطبيخ لغة في البطيخ، وهو من المقلوب. وقد مضى في" المائدة" الرد على من آثر أكل الخشن من الطعام. وهذه الآية ترد عليه وغيرها: والحمد لله."

وجه الاستنباط:

أشار الإمام أن طائفة الصوفية الذين تركوا أكل الطيبات ليسوا على الجادة، لأن ذلك مخالف لفعل النبي صلى الله عليه وسلم.

منهج الإمام:

الاستدلال بالقرآن الكريم والسنة، مع إيراد كلام العلماء.

يشير إلى ذلك الإمام القرطبي في كتاب الجامع:

﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا﴾ الآية 50 سورة النساء

قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) فيه ثلاث مسائل: الأولى- قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) هذا اللفظ عام في ظاهره ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد اليهود. واختلفوا في المعنى الذي زكوا به أنفسهم، فقال قتادة والحسن: ذلك قولهم: (نحن أبناء الله وأحباؤه)، وقولهم: (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) وقال الضحاك والسدي: قولهم لا ذنوب لنا وما فعلناه نهارا غفر لنا ليلا وما فعلناه ليلا غفر لنا نهارا، ونحن كالأطفال في عدم الذنوب. وقال مجاهد وأبو مالك وعكرمة: تقديمهم الصغار للصلاة، لأنهم لا ذنوب عليهم. وهذا يبعد من مقصد الآية. وقال ابن عباس: ذلك قولهم آباؤنا الذين ماتوا يشفعون لنا ويزكوننا. وقال عبد الله ابن مسعود: ذلك ثناء بعضهم على بعض. وهذا أحسن ما قيل، فإنه الظاهر من معنى الآية، والتزكية: التطهير والتبرئة من الذنوب.[16]

وجه الاستنباط:

يستنبط الإمام القرطبي أن التزكية هي التطهير والتبرئة من الذنوب.

منهج الإمام في الاستنباط:

التذرع بالحديث النبوي الشريف.

-التربية الروحية:

-اهتمام الإمام القرطبي بالقلب:

﴿ختم الله على قلوبهم﴾ الآية7 من سورة البقرة

وقف الإمام القرطبي لتفسير الآية 7من سورة البقرة، للإشارة لموضوع في غاية الأهمية، وهو موضوع القلب، ولأجل البيان يذكر الحديث المتعلق بمضغة القلب: إن في الجسد مضغة..، ويعتبره الأساس لربطه بكلام مجاهد الآتي:

وقال مجاهد: القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع، ثم يطبع، ليصل إلى أن الختم يكون حقيقيا

قال الإمام القرطبي: "وفي قول مجاهد هذا، وقوله عليه السلام: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) دليل على أن الختم يكون حقيقيا، والله أعلم. وقد قيل: إن القلب يشبه الصنوبرة، وهو يعضد قول مجاهد، والله أعلم

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر: حدثنا (أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة). ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: (ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شي ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه علي دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه ، وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا (. ففي قوله:) الوكت) وهو الأثر اليسير. ويقال للبسر إذا وقعت فيه نكتة من الإرطاب: قد وكت، فهو موكت. وقوله: (المجل)، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء، وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (كجمر دحرجته) أي دورته على رجلك فنفط. (فتراه منتبرا) أي مرتفعا ما يدل على أن ذلك كله محسوس في القلب يفعل فيه، وكذلك الختم والطبع، والله أعلم".[17]

منهج الإمام القرطبي:

الاستدلال بالحديث والتعضيد بكلام العلماء.

المثال الثاني: استغفار

أورد الإمام القرطبي كلام أحد التابعين وهو الحسن البصري:

وروي عن الحسن البصري أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى استغفار

قلت: هذا يقوله في زمانه، فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكبا على الظلم! حريصا عليه لا يقلع، والسبحة في يده زاعما أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف. وفي التنزيل" ولا تتخذوا آيات الله هزوا" [البقرة: 231]

وجه الاستنباط:

نزل الإمام المفسر تفسير الإمام البصري رحمه الله القائل: استغفارنا يحتاج إلى استغفار على واقعنا، وصور حال غفلة الإنسان وهو ماسك بالسبحة زاعما أنه يستغفر، وفي قرارة نفسه مستخف.

منهج الإمام

الاعتماد على القرآن الكريم

–اهتمام الإمام بالنفس:

﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾ الآية 42سورة الأنعام

الرد في تفسير هذه الآية على العباد الذين استدلوا في تأديب أنفسهم بالبأساء في تفريق الأحوال والضراء في الحمل على الأبدان بالجوع والعري بهذه الآية: الآية 42من سورة الأنعام، فقد رد الإمام القرطبي على جهالة من اتخذ هذه الآية ذريعة لتفريق الأحوال،

وإذاية الأبدان، والفيصل في ذلك أن الآية حملت عقوبة من الله لمن شاء من عباده أن يمتحنهم بها، ولا يجوز أن نمتحن أنفسنا ونكافئها قياسا عليها فإنها المطية التي نبلغ عليها دار الكرامة، ونفوز بها من أهوال يوم القيامة.

استنبط الإمام القرطبي عدم جواز تعذيب النفس وإضاعة المال مما يأتي:

"وفي التنزيل: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا" المؤمنون:51] وقال:" يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم"] البقرة: 267]. : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾"] البقرة:172] فأمر المؤمنين بما خاطب به المرسلين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون الطيبات ويلبسون أحسن الثياب ويتجملون بها، وكذلك التابعون بعدهم إلى هلم جرا، على ما تقدم بيانه في (المائدة) وسيأتي في (الأعراف) من حكم اللباس وغيره، ولو كان كما زعموا واستدلوا لما كان في امتنان الله تعالى بالزروع والجنات وجميع الثمار والنبات والانعام التي سخرها وأباح لنا أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها- إلى غير ذلك مما امتن به- كبير فائدة، فلو كان ما ذهبوا إليه فيه الفضل لكان أولى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن بعدهم من التابعين والعلماء، وقد تقدم في آخر (البقرة) بيان فضل المال ومنفعته والرد على من أبى من جمعه، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال مخافة الضعف على الأبدان، ونهى عن إضاعة المال ردا على الأغبياء الجهال."[18]

منهج الإمام القرطبي:

الاستدلال بكتاب الله عز وجل.

بعد عرض نماذج كأمثلة لاستنباطات تربوية عن أنواع التربية المتواجدة بين ثنايا مصنف الجامع للإمام القرطبي يبدو لي مدى موسوعية هذا الكتاب، الذي تضمن مجالات متنوعة تتساق فيها الأخلاق والآداب والقيم والتزكية للقلب والروح والنفس جميعا.

والسؤال المهم الذي يطرح الآن: كيف يمكن الاستفادة من الاستنباطات التربوية من أجل تطوير تربوي مأمول؟

4-كيفية الاستفادة من الاستنباطات التربوية للإمام القرطبي:

إن بيان الإمام القرطبي لعدة استنباطات تربوية في كتابه الجامع مناسبة سانحة لجردها، ومعرفة مختلف تقسيماتها، فهناك الأخلاق والآداب الإسلامية، وأيضا تصحيح المفاهيم، وهي تنتمي لعدة مجالات تربوية، فهناك الخلقي والروحي والإيماني، والوجداني المتعلق بالقلب والنفس، مما يجعلها منظومة متكاملة كافية،

والواجب اتجاه هذه التقسيمات هو التجلية، وبذلك ستظهر هذه المنظومة الشاملة بمضامينها ومناهجها الشرعية، بعد استخراجها وإظهارها تكون متاحة أمام الفرد، وأيضا اتجاه المجتمع، وبذلك تعمل المضامين المستنبطة بكافة ضروبها في التخلية من الرذائل، والانتقال به إلى التحلية بالفضائل والقيم.

بالتالي التحصيل على منهج مركب من ثلاث عمليات: التجلية، والتخلية والتحلية

التجلية: وتعني إظهار مضامين الاستنباطات التربوية سواء كانت أخلاقا أو آدابا، أو قيما. لذا ينبغي الاستفادة من جهود العلماء المفسرين ،و ما توصلوا إليه من استنباطات تربوية كالإمام القرطبي..

في القرآن الكريم جاءت آيات تتحدث عن التلاوة والتزكية وحصول العلم والحكمة، وفي الآيات الثلاث تقدمت التزكية وتأخر العلم ،لأن منطلق العلم هو التزكية ،والأدب سابق عن العلم ،أو بأسلوب أدق التربية قبل العلم، قال الله تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾البقرة 150،﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا

من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ آل عمران 164 ،﴿وهو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾الجمعة، والتجلية لا تكون إلا بعد التلاوة وحصول فهم المعنى ، أما التخلية: و المراد بها التزكية والتطهير من أدران النفس والقلب، فتعد تهيئة قبلية للمحل: القلب والنفس، وأما التحلية: وهي مرتبة تأتي بعد خلو المحل واستعداده لتحميل حمولة الأخلاق والآداب والقيم.

خاتمة:

يمكن استخلاص عدة نتائج وتوصيات:

-النتائج:

-الاستنباط يعني الاستخراج للمعاني الخفية.

-التربية تعني النماء والزيادة.

-التفسير الجامع للإمام القرطبي مليء بالاستنباطات التربوية القيمة التي تغطي عدة أنواع من التربيات كالخلقية، والوجدانية، والإيمانية..

-كتب التفسير زاخرة بالكنوز التربوية، من حيث المضمون ومن حيث المنهج.

-التجلية أولا، ثم التخلية، وبعدها التحلية.

- تفسير كتاب الله عز وجل فيه التربية المناسبة للمسلمين ولمجتمعهم.

-التوصيات:

-المصنفات التفسيرية رغم كمية البحوث المنجزة إلى حد الآن فلازالت مساحات منها لم تكتشف، مما يجعل الباب مفتوحا أمام الباحثين لبذل المزيد من الجهود.

الهوامش:

[1] لسان العرب، ابن منظور، الجزء 7، ص41

[2] تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، ج2،ص366.

[3] التعريفات للجرجاني، ص 38

[4] علم الاستنباط من القرآن، د. نايف بن سعيد الزهراني، ص14

[5] مقاييس اللغة ابن فارس، ج2،ص483.

[6] أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والبيت، عبد الرحمن النحلاوي، ص16.

[7] المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ج1،ص336

[8] ملامح التفسير التربوي للقران الكريم د إبراهيم بن سعيد الدوسري، ص12

[9] : ج7ص54

[10] صحيح البخاري 6207 وبعضه في صحيح مسلم 1798

[11] الجامع لأحكام القرآن المبين للسنة وآي الفرقان، الإمام القرطبي، ج2،ص315-316

[12] ج20ص436

[13] ج11ص459

[14] أخرجه الطبراني في الأوسط8335، وابن عبد البر في التمهيد 21-13

[15] ج9ص207-208-209

[16] ج9ص372

[17] ج9ص372

[18] ج8، ص377